ملف العدد

مرتكزات النهوض العربى

د. محمد السعيد إدريس
مستشار تحرير دورية آفاق عربية
مستشار مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية

ردود الفعل المحفزة التى تلقيناها حول موضوع "قضية العدد" الذى نُشر فى العدد السابق من دورية "آفاق عربية" (العدد الخامس- فبراير ٢٠١٩) وحمل عنوان: "قبل أن ننحدر إلى نفق مظلم.. المشروع العربى هو الحل"، كانت الدافع الأساسى لفكرة هذا الملف، الذى أردنا به السير على هدى ما تضمنه "المشروع النهضوى العربى" الذى أعده ونشره "مركز دراسات الوحدة العربية" والذى كان محصلة لما تضمنته أوراق مناقشات ندوة كبرى عقدت فى مدينة "فاس" المغربية وعدد آخر من الورش البحثية التى أعقبت تلك الندوة بمشاركة أعداد كبيرة من المفكرين والخبراء والباحثين العرب من كافة التخصصات ومن كافة التيارات الفكرية والسياسية العربية.

نص "المشروع النهضوى العربى" الذى نشره مركز دراسات الوحدة العربية فى فبراير/ شباط ٢٠١٠، أى قبل عام واحد تقريباً من تفجر موجة الثورات العربية التى كانت فى أبرز جوانبها تمثل صرخة مدوية لإسقاط كل معوقات النهوض العربى والطموح إلى بناء غدٍ أفضل، كان قد حدد الأزمات الكبرى الست التى تعوق التقدم العربى نحو التأسيس لنهضة عربية جديدة هى: التجزئة بكل صورها القطرية والطائفية والقبلية، والاستبداد بكل صوره ومستوياته، والتخلف، والظلم والاستغلال بكل صوره ومستوياته، والهيمنة الأجنبية الإقليمية والدولية، وأخيراً التجمد التراثى من الداخل والمسخ الثقافى من الخارج، وتوصل إلى ستة حلول لمواجهة هذه الأزمات الكبرى

على النحو التالى: الوحدة العربية فى مواجهة التجزئة، والديمقراطية فى مواجهة الاستبداد، والتنمية المستقلة فى مواجهة التخلف، والعدالة الاجتماعية فى مواجهة الظلم والإستغلال، والاستقلال الوطنى والقومى فى مواجهة الهيمنة الأجنبية والإقليمية والدولية، والتجدد الحضارى فى مواجهة التجمد التراثى من الداخل والمسخ الثقافى من الخارج، وانتهى هذا المشروع فى خاتمته إلى خلاصة أو استخلاص شديد الأهمية يقول: "لم تعد الأمة العربية أمام ترف الاختيار بين ممكنات عديدة، إنها أمام أحد خيارين لا ثالث لهما: إما أن تنهض وتتقدم وتنفض عنها حالة التأخر والتقهقر، وإما ستزيد عُرْوتها تفككاً ونسيجها تمزقاً، وفكرتها الجامعة اندثاراً"، وزاد على ذلك بالقول: "إن النهضة اليوم أكثر من أى خيار هى فريضة وجودية، دون القيام بها سقوط وانحلال. وإذا كان للقوى الحيّة فى الأمة ما تقدمه لمشروع النهضة من رأى وتخطيط وتنظيم وتوعية وتعبئة، فإن قابلة النهضة التى ستقوم باستيلادها هى جماهير الأمة الواعية لمصلحتها، المدركة لما يُحدق بمصير الوطن والأمة من دون مستقبل نهضوى".

هذا الاستخلاص، وإن كان قد تنبأ وقرأ بوعى شديد حتمية الاستنفار الذى ستقوم به جماهير الأمة رفضاً للواقع العربى المأزوم طموحاً فى استيلاد مستقبل عربى ناهض ومتقدم، فإنه قد حدد قبل ذلك حتمية الانخراط العربى فى مشروع للنهضة وفق المبادئ الست التى أكدها لمواجهة الأزمات الست المستحكمة. وجاءت انتكاسات معظم الثورات العربية التى تفجرت فى عام ٢٠١١ والاختراقات الهائلة التى تعرضت لها، كما جاءت المخططات الكبرى التى تعرضت وتتعرض لها الأمة العربية بعد ذلك لتؤكد عنف المواجهة بين المشروعين: المشروع الصهيونى- الاستعمارى (الإسرائيلى- الأمريكى) والمشروع النهضوى العربى. فإذا كانت الانتكاسات التى تعرضت لها الثورات العربية قد استهدفت إسقاط حق الجماهير العربية أن تفرض نظام الحكم الذى تريده، ومبادئ وقيم الحكم التى تأملها، فإن الأمة كلها تعرضت إلى ثلاثة مخططات استهدفت استئصالها نهائياً ومنع أى فرصة لإستيلاد مشروع عربى للنهضة. استهدف الأول تفكيك النظام العربى وفرض نظام إقليمى آخر بديل أمريكى- إسرائيلى، واستهدف الثانى إعادة تفتيت وتفكيك الدولة الوطنية العربية (القطرية) وفق معايير

عرقية وأخرى دينية وثالثة طائفية، واستهدف الثالث إغراق الأمة فى صراعات واستقطابات إقليمية وفرض أحلاف عسكرية- سياسية ترمى كلها ليس فقط إلى تصفية القضية الفلسطينية نهائيا لصالح المشروع الصهيونى وفرض مشروع "الدولة اليهودية" على كل الأرض التاريخية للوطن الفلسطينى، بل تهدف بالأساس إلى تصفية "العروبة" ذاتها واجتثاث دعوة القومية والوحدة العربية والحيلولة دون قيام أى فرصة لتأسيس مشروع عربى للنهضة باعتبار أن هذا المشروع هو النقيض الموضوعى والحتمى للمشروع الصهيونى – الأمريكى.

من هنا جاءت دعوتنا إلى أن "المشروع النهضوى العربى.. وحتمية تأسيس مشروع عربى للنهضة على ركائز قوية" هو المخرج الوحيد للحيلولة دون انزلاق الأمة كلها فى نفق مظلم لا مخرج منه. وأثارت فينا ردود الفعل الواسعة التى استقبلت هذه الدعوة بإيجابية محفزة ضرورة المضى فى الطريق والتحول الإيجابى من الدعوة إلى جدية التأسيس للمشروع إلى البحث فى المرتكزات التى يجب أن يقوم عليها، أى التحول من الدعوة إلى الفكرية وإحياء المبادئ كما هى واردة فى المشروع الذى أعده مركز دراسات الوحدة العربية، إلى التأسيس للمرتكزات والإجابة عن السؤال المهم: كيف يمكن الانخراط الفعلى فى تأسيس مشروع عربى للنهضة؟

نعرف أن الإجابة على هذا السؤال ليست بالأمر اليسير، لكن ما شجعنا على الانخراط فى الأمر والإعداد لهذا الملف الذى يحمل عنوان "مرتكزات مشروع النهوض العربى" تلك الاستجابة الرائعة لدعوتنا من جانب عدد كبير من أبرز الأساتذة والمفكرين والخبراء العرب للمشاركة فى هذه المهمة القومية. وإذا كنا قد اكتفينا فى هذا الملف بنشر عدد مميز من تلك الإسهامات فنحن على يقين بأن ما ننشره وما ندعو إليه هو مجرد البدايات، وأن المهمة كبيرة والأعباء هائلة، لذلك سيبقى مشروع النهوض العربى هو الأساس بالنسبة لنا، وسنواصل نشر المزيد والمزيد من الإسهامات التى ندرك أنها سوف تتكامل حتماً، لبلورة المشروع الذى تطمح إليه كل الأمة وتستحقه.

وإذا كنا قد سبق أن حددنا مساران لحركة أو لتوجه المشروع العربى المنشود للنهضة فى "قضية العدد" المشار إليها هما: المسار الرسمى والمسار الشعبى، فإننا

نركز فى هذا الملف على ما نعتبره مرتكزات أساسية يمكن أن يرتكز عليها المشروع النهضوى كى يتأسس بالشكل المأمول ويمكن أن تتحقق من خلالها هى: أولاً مرتكز هوية المشروع التى حتماً يجب أن تكون "العروبة" وليس شيئاً آخر غيرها، ولكن عروبة بمضامين أخرى تتجاوز مرحلة "الرومانسية" السابقة، أى "عروبة موضوعية" ابنة عالمها الذى تعيش فيه، وثانياً المرتكز السياسى وثالثاً المرتكز الاقتصادى، ورابعاً المرتكز الاجتماعى، وخامساً المرتكز الثقافى وسادساً المرتكز الإعلامى.

ولحسن الحظ لدينا سبع دراسات تناقش كل مرتكز من هذه المرتكزات حيث حظى المرتكز الاقتصادى بدراستين متكاملتين واحدة تتحدث عن "الدولة التنموية" كإطار مؤسس لعملية التنمية الاقتصادية، والآخرى تتحدث عن الاقتصاد الرقمى كاستجابة حتمية للثورة الصناعية الرابعة باعتباره المضمون الذى يجب أن تنشده عملية التنمية ضمن إطار "الدولة التنموية".

مرتكز الهوية العربية للمشروع النهضوى كتبه المفكر والكاتب اللبنانى المرموق الأستاذ/ سعد محيو، الذى حدد ثلاثة عوامل أدت مجتمعة إلى تراجع هوية العروبة السياسية فى صيغتها "الرومانسية" كما أرسى دعائمها ساطع الحصرى وزكى الأرسوزى وميشيل عفلق، ثم لاحقاً النظم القومية العربية (الناصرية والبعثية) هى أولاً النكسات والهزائم التى تعرضت لها الأمة (كانت كلها تستهدف استئصال وهزيمة العروبة) ابتداءً من نكبة ١٩٤٨ ثم نكسة عام ١٩٦٧ ثم غزو العراق واحتلاله عام ٢٠٠٣، لكن قبله كانت سقطة، وربما نكبة، الغزو العراقى للكويت عام ١٩٩٠ وما تلاه من تأسيس تحالف دولى ضد العراق عام ١٩٩١ أدى إلى انشطار العالم العربى إلى شطرين داعم للغزو ورافض له. وثانياً ضرب الغرب والصهيونية لمشاريع الحداثة والتحديث العربية على الصعد السياسية والاقتصادية والثقافية تماماً كما حدث فى قضية محمد على فى القرن التاسع عشر، وما رافق ذلك من فشل مزدوج سواء فى إقامة دولة الوحدة العربية أو بناء الدولة فى كل قطر عربى. وثالثاً التغييرات العميقة التى طرأت على بنية النظام الدولى والتى تؤدى هى الأخرى إلى تكريس "نهاية تاريخ" حقبة العروبة الرومانسية، من دون أن يعنى ذلك بالطبع، نهاية العروبة نفسها كفكرة ومشروع، ولكن قد ساعد على بلورة جديدة من مراحل تطوير هذه الهوية.

هذا العامل يحمل فى طياته العديد من ملامح المستقبل (إن لم يكن المصير) العربى، ولا يمكن فهم التطورات المتلاحقة فى الوطن العربى من دونه، فى ظل مشروعات التفكيك وإعادة الهندسة للوطن العربى ونظامه الإقليمى. مشاريع أمريكية وأخرى إسرائيلية وثالثة أوروبية.

ويؤكد الكاتب إن ما يحدث الآن من "انقلاب تاريخى" وتحولات فى موازين القوى الدولية فى شكل تراجع مكانة القوة الغربية (الأمريكية والأوروبية) لصالح صعود مكانة القوة الآسيوية (الصين والهند واليابان) يمثل فرصة تاريخية جديدة للعرب لإعادة تأسيس مشروعهم الحضارى. هذا الصعود للعمالقة الشرقيين (الآسيويين) الثلاثة فى آن واحد والمتزامن مع تراجع أو أفول القوى الغربية من شأنه أن يؤدى إلى بزوغ نظام عالمى جديد "يكون فيه الغرب الأول بين متساويين وليس الأول للاشئ"، وهذا تطور من شأنه أن يكون حافزاً لاستثارة حراك الحضارة العربية-الإسلامية، بصفتها آخر الحضارات الشرقية التى لم تنبعث بعد من جديد، كما أن انحسار الهيمنة الغربية سيقلص حدة "المعضلة العربية" المزمنة حول "الصراع ضد الغرب ومن أجله"، عبر توفير بدائل حداثة شرقية هذه المرة.

فى ذات الوقت يؤكد الكاتب أن الثورات التى حدثت عام ٢٠١١ فى العديد من الدول العربية بقياداتها الشبابية تؤكد أننا أمام انبعاث لهوية عربية حضارية من نوع جديد تفرض على المثقفين العرب المساهمة فى بلورتها، هوية عربية متجددة ومنفتحة على مجالها الحيوى الإقليمى الحضارى هى، بحق، "هوية المشروع النهضوى العربى الذى نأمله".

أما المرتكز السياسى لهذا المشروع فقد حدد أبرز معالمه الأستاذ الدكتور/ أحمد يوسف أحمد أستاذ العلوم السياسية بجامعة القاهرة والمدير العام السابق لمعهد البحوث والدراسات العربية. فى مقدمة هذه المعالم، ولحسن الحظ، بما يتوافق مع الدراسة التى أعدها الأستاذ / سعد محيو، تأتى إعادة الاعتبار للعروبة ثم الحاجة إلى قيادة للنظام وللمشروع العربى، ثم الحاجة إلى العديد من المبادرات العربية لمواجهة التحديات التى تواجه الأمة سواء ما يتعلق بالصراعات الداخلية فى الدول العربية (اليمن، سوريا، ليبيا) أو ما يتعلق بمواجهة مصادر تهديد الأمن العربى، وأخيراً

مواجهة المخاطر التى تتهدد القضية الفلسطينية والصراع ضد الكيان الصهيونى ومشروعه التوسعى المدعوم أمريكياً.

أما المرتكز الاقتصادى لمشروع النهوض العربى فقد حظى بدراستين متكاملتين مهمتين الأولى كتبها المفكر والخبير الاقتصادى المصرى الأستاذ/ إبراهيم نوار والثانية كتبها الخبير فى مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية الدكتور/ عادل عبد الصادق. فالأستاذ/ إبراهيم نوار يرى أن الشرط الأول للنهوض يتمثل فى الاعتراف بأن العالم العربى يعيش أزمة متعددة المستويات والأبعاد. يتأكد ذلك من خلال استعراض حال العالم العربى اقتصادياً ومن خلال الموقع العربى المتدنى على خريطة تقسيم العمل الدولى، وضعف القدرة العربية على المنافسة الاقتصادية فى السوق العالمية، ويؤكد، فى ذات الوقت، أن الحل لأزمة الاقتصادات العربية تكمن فى "الدولة التنموية" التى يعرفها بأنها "دولة نشطة"، تديرها مؤسسات وليس أفراداً، تتمتع بالمهارة والشفافية، وهى دولة منفتحة على المجتمع بكل مقوماته، ومتعاونة معه، ومن ثم دولة ديمقراطية، ومنفتحة على العالم سياسياً وتجارياً، لا تمارس العزلة أو الحماية بشكل مطلق، وهى فوق كل ذلك دولة قادرة تمتلك الرؤية والمبادرة، لا تستأثر ولا تحتكر ولا تصادر قوى السوق، إنما تشاركها فى مراحل مختلفة لمواجهة التحديات المطلوبة، وتضع الإطار التنظيمى الصحى والسليم لضمان تخصيص الموارد بأعلى كفاءة ممكنة، وتفتح مجالات جديدة للتنمية، لا تقدر قوى السوق وحدها على اقتحامها".

يأتى بعد ذلك الدكتور/ عادل عبد الصادق ليركز على "المرتكز العلمى- التكنولوجى" لاقتصاد التنمية العربية إستجابة لمطالب وتحديات "الثورة الصناعية الرابعة" وذلك بالانخراط فى "الاقتصاد الرقمى من خلال اتباع مراحل يجب الوصول من خلالها إلى مرحلة الإبداع والإنتاج تبدأ بنقل التكنولوجيا، ثم توطين التكنولوجيا، وبعدها توليد التكنولوجيا، مشيراً إلى أن الثورة الصناعية الرابعة تتيح الفرصة للعب دور فاعل وذلك باعتمادها على الإبداع والابتكار واقتصاد المعرفة، وليس بالضرورة على حجم الموارد الطبيعية، وخاصة أن العالم العربى لديه ٦٠% من هرمه السكانى من الشباب، وهم قوة نسبية هائلة فى سبيل الاستحواذ على الاقتصاد الرقمى.

أما المرتكز الاجتماعى لمشروع النهوض العربى فقد كتبه الأستاذ الدكتور/ أحمد زايد أستاذ علم الاجتماع السياسي بجامعة القاهرة- العميد الأسبق لكلية الآداب جامعة القاهرة. حيث يؤكد على أنه لا سبيل إلى اكتمال أى مشروع لبناء الأمة دون التفكير ملياً فى ظروف الاجتماع الإنسانى، بمعنى ظروف بناء مجتمع يسع سكانه شمولاً واحتواء، ويوفر لهم سبل العيش الكريم ويمنحهم قدراً كبيراً من المعارف التى تمكنهم من تحقيق تكيف كبير وسريع مع الظروف المتغيرة من حولهم.

وفى سبيل تحديد إطار "الاجتماع الإنسانى" للمشروع العربى ركز الدكتور/ أحمد زايد على المحاور الأساسية لهذا الإطار وتتضمن: نمط المجتمع المنشود، والقيم المركزية لهذا المجتمع مع تركيز خاص على قيمة "العدالة"، وأسس التعاقد الاجتماعى فى هذا المجتمع وخاصة "المساواة المعممة" (أى المساواة فى المعاملة) وتحجيم التباعد الاجتماعى وثم الثقة المعممة، وأخيراً تحدث عن ضرورة بناء ما يسميه بـ "الأكواد الحياتية" أو "الاركيولوجيا الحياتية" كمتمم لأطر بناء "الاجتماع الإنسانى" لمشروع النهضة العربية.

يأتى كل من المرتكز الثقافى ثم المرتكز الاجتماعى ليكملا باقى مرتكزات المشروع العربى. فقد كتب الدكتور/ سماح إدريس المفكر اللبنانى رئيس تحرير مجلة الآداب التى تصدر فى بيروت ورقته عن "المرتكز الثقافى" بإعطاء الأولوية لـ "زرع قيم محددة فى النشء الجديد" تعطى الأولوية للنظر بموضوعية إلى الثقافة العربية والتراث العربى والحضارة العربية، ومحبة واحترام اللغة العربية، والحض على فكرة الإلتزام بمصالح المجتمع العربى، وأخيراً الحض على رفض الكيان الصهيونى ومشروعه الإستعمارى. كما ركز فى ذات الوقت على أدوار تقوم بها الدول العربية لدعم الثقافة العربية من خلال دعم دارسى العلوم الإنسانية والإبداع الأدبى والفنى فى الجامعات العربية، وإعطاء أهمية كبرى للترجمة إلى اللغة العربية من لغات وثقافات مختلفة، وإجادة تعليم اللغات الأجنبية المختلفة وليس الغربية فقط.

أما الأستاذ الدكتور/ محمود خليل الأستاذ بكلية الإعلام جامعة القاهرة فقد اعتبر أن الإعلام يعد قوة دافعة للنهوض العربى من زاويتين؛ الأولى هى الزاوية الثقافية ويتأسس على فكرة أن النهضة، فى أحد جوانبها، تعد تعبيراً عن حالة من حالات

"التغيير الثقافى" الذى يؤدى إلى نقل المجتمع من حالة متدنية أو ضعيفة إلى حالة أفضل، أما الزاوية الثانية فهى زاوية "التأثير" وتستند إلى القدرة التأثيرية للإعلام وأدواره فى حث الجمهور على المشاركة فى جهود النهضة والتنمية.

كما ركز الدكتور/ محمود خليل على أن الإعلام التقليدى يتراجع لصالح الإعلام الجديد، وهذا أمر يجب أخذه فى الاعتبار بكل جدية، وحدد أربعة مسارات لتفعيل دور وسائل الإعلام فى دفع مشروعات النهوض العربى. أولها الرسالة الإعلامية النهضوية فى مقابل المحتوى الاستهلاكى للإعلام، وتداول المعلومات مقابل التعتيم عند بناء المحتوى، والحقائق والمعلومات فى مواجهة الأخبار المزيفة عند بناء المحتوى الإعلامى، وأخيراً خطاب التنوع فى مقابل خطاب الاستقطاب.

هذه المرتكزات الست التى يتضمنها هذا الملف نعتقد أنها تقدم إجابة متقدمة للسؤال المحورى: كيف يمكن بناء مشروع عربى للنهضة، لكنها إجابة تبقى مفتوحة على المزيد من النقاشات والحوارات وجذب اهتمام النخب العربية الحاكمة والمثقفة على إعطاء الأولوية للانخراط فى التأسيس لمشروع نهضوى عربى باعتباره الحل الذى بمقدوره أن يحول دون دخول الأمة العربية فى "نفق مظلم" أو "مصير مظلم".